مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عِمرَان: الآية ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النِّساء: الآية ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزَاب: الآيتان ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

إن دراسة الهدْي النبوي أمر له أهميته لكل مسلم؛ فهو يحقق عدة أهداف، من أهمها: الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيته ﷺ، وأعماله وأقواله وتقريراته، وتكسب المسلم محبة الرسول ﷺ، وتُنَميها وتباركها، وتعرفه بحياة الصحابة الكرام، الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم، والسير على نهجهم، واتباع سبيلهم، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ بدقائقها، وتفاصيلها منذ ولادته، وحتى موته، مرورًا بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره على عدوه، وتظهر بوضوح أنه كان زوجًا وأبًا وقائدًا ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًا، وداعية وزاهدًا وقاضيًا، وعلى هذا فكل مسلم يجد بُغيته فيها[1]، فالداعية يجد له في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدعوة، ومراحلها المتسلسلة، ويتعرف على الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس، ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات والصعوبات، وما هو الموقف الصحيح أمام

---

(١) انظر: السيرة النبوية دراسة تحليلية، د. محمد أبو فارس (ص ٥٠).

الشدائد والفتن. ويجد المربي في سيرته ﷺ دروساً نبوية في التربية، والتأثير على الناس بشكلٍ عام، وعلى أصحابه الذين رباهم على يده وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلاً قرآنيًا فريدًا، وكوّن منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولة نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها، ويجد القائد المحارب في سيرته ﷺ نظاماً محكمًا، ومنهجًا دقيقًا في فنون قيادة الجيوش والقبائل، والشعوب والأمة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة، وحرصًا على تجسيد مبادىء العدل، وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء، والراعي والرعية. ويتعلم منها السياسي كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أُبَيّ ابن سَلول الذي أظهر الإسلام، وأبطن الكفر والبغض لرسول الله ﷺ، وكيف كان يحيك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسيء إلى رسول الله ﷺ لإضعافه وتنفير الناس منه، وكيف عامله رسول الله ﷺ وصبر عليه، وعلى حقده، حتى ظهرت حقيقته للناس، فنبذوه جميعًا حتى أقرب الناس له، وكرهوه والتفوا حول قيادة النبي ﷺ.

ويجد العلماء فيها ما يعينهم على فهم كتاب الله تعالى، لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول وتفسيرٌ لكثير من الآيات، فتعينهم على فهمها، والاستنباط منها، ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعية، ويحصلون منها على المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ، وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية، ويجد فيها الزهاد معاني الزهد، وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة، وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتَلَون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم على السير في طريق دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل، ويوقنون أن العاقبة للمتقين[١].

وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة، والأخلاق الحميدة، والعقائد السليمة، والعبادة الصحيحة، وسمو الروح، وطهارة القلب، وحب الجهاد في سبيل الله، وطلب الشهادة في سبيله، ولهذا قال علي بن الحسين رحمه الله: «كنا نُعلَّم مغازيَ النبي ﷺ كما نُعلَّم السورة من القرآن» وقال الواقدي: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت عمي الزهري يقول: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا»[٢].

وقال إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ يعدها علينا، ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[٣].

---

(١) انظر: مدخل لفهم السيرة، د. يحيى اليحيى (ص ١٤).

(٢) البداية والنهاية: لابن كثير (٣/ ٢٥٦، ٢٥٧) ط) / دار المعرفة، (٣/ ٢٤٢) ط / ١٩٧٨م مكتبة المعارف ـ لبنان، مكتبة النصر ـ الرياض.

(٣) انظر: البداية والنهاية (٢/ ٢٤٢).

إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، يساعد العلماء والقادة، والفقهاء والحكام، على معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين، من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون على فقه النبي ﷺ في تربية الأفراد، وبناء الجماعة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة، فيرى المسلم حركة النبي ﷺ في الدعوة، والمراحل التي مر بها، وقدرته على مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلى الحبشة، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة، وعرضه لها على القبائل في المواسم، وتدرجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلى المدينة.

إن من تأمل حادثة الهجرة، ورأى دقة التخطيط ودقة التنفيذ من ابتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة الرسول ﷺ قائم، وأن التخطيط جزء من السنة، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم.

إن المسلم يتعلم من المنهاج النبوي كل فنون إدارة الصراع، والبراعة في إدارة كل مرحلة، وفي الانتقال من مستوى إلى آخر، وكيف واجه القوى المضادة من اليهود والمنافقين، والكفار والنصارى، وكيف تغلب عليها كلها بسبب توفيق الله تعالى، والالتزام بشروط النصر وأسبابه، التي أرشد إليها المولى في كتابه الكريم.

إن قناعتي الراسخة في التمكين لهذه الأمة، وإعادة مجدها وعزتها، وتحكيم شرع ربها؛ منوط بمتابعة الهَدْي النبوي، قال تعالى:

﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النُّور: الآية ٥٤].

فقد بينت الآية الكريمة أن طريق التمكين في متابعة النبي ﷺ، فقد جاءت الآيات التي بعدها تتحدث عن التمكين، وتوضح شروطه، قال تعالى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النُّور: الآيتان ٥٥، ٥٦].

وقد قام رسول الله ﷺ وأصحابه بتحقيق شروط التمكين، فحققوا الإيمان بكل معانيه، وجميع أركانه، ومارسوا العمل الصالح بكل أنواعه، وحَرَصوا على كل أنواع الخير، وصنوف البر، وعبدوا الله عبودية شاملة في كل شؤون حياتهم، وحاربوا الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأخذوا بأسباب التمكين المادية والمعنوية، على مستوى الأفراد والجماعة، حتى أقاموا دولتهم في المدينة، ومن ثم نشروا دين الله بين الشعوب والأمم.

إن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض، نتيجة منطقية لقوم نسوا رسالتهم، وحطوا من مكانتها، وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم والعمل على حد سواء، وأهملوا السنن الربانية، وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام.

إن هذا الضعف الإيماني، والجفاف الروحي، والتخبط الفكري والقلق النفسي، والشتات الذهني، والانحطاط الخلقي الذي أصاب المسلمين، بسبب الفجوة الكبيرة التي حدثت بين الأمة والقرآن الكريم، والهَدْي النبوي الشريف، وعصرِ الخلفاء الراشدين والنقاط المشرقة المضيئة في تاريخنا المجيد.

أما ترى معي ظهور الكثير من المتحدثين باسم الإسلام، وهم بعيدون كل البعد عن القرآن الكريم، والهَدْي النبوي، وسيرة الخلفاء الراشدين، وأدخلوا في خطابهم مصطلحات جديدة، ومفاهيم مائعة؛ نتيجة الهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية، وأصبحوا يتلاعبون بالألفاظ ويَلْوُونها، ويتحدثون الساعات الطوال، ويدبجون المقالات، ويكتبون الكتب في فلسفة الحياة والكون والإنسان، ومناهج التغيير، ولا نكاد نلمس في حديثهم، أو نلاحظ في مقالاتهم عمقاً في فهم فقه التمكين، وسنن الله في تغيير الشعوب، وبناء الدول من خلال القرآن الكريم، والمنهاج النبوي الشريف، أو دعوة الأنبياء والمرسلين لشعوبهم، أو تقصّياً لتاريخنا المجيد، فيخرجوا لنا عوامل النهوض عند نور الدين محمود، أو صلاح الدين، أو يوسف بن تاشفين، أو محمود الغزنوي، أو محمد الفاتح، ممن ساروا على الهدى النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، بل يستدلون ببعض الساسة أو المفكرين، والمثقفين من الشرق أو الغرب، ممن هم أبعد الناس عن الوحي السماوي، والمنهج الرباني، وأنا لست ممن يعارض الاستفادة من تجارب الشعوب والأمم؛ فالحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بها أنّى وجدها، ولكنني ضد الذين يجهلون أو يتجاهلون المنهاج الرباني، وينسون ذاكرة الأمة التاريخية المملوءة بالدروس والعبر والعظات، ثم بعد ذلك يحرصون على أن يتصدروا قيادة المسلمين وبأهوائهم، وآرائهم البعيدة عن نور القرآن الكريم، والهَدْى النبوي الشريف.

وما أجمل ما قاله ابن القيم:

والله ما خوفي من الذنوب فإنها لعلى ... طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب عن تحكيم ... هذا الوحي والقرآن
ورضا بآراء الرجال وخرصها ... لا كان ذاك بمنة الرحمٰن

إننا في أشد الحاجة لمعرفة المنهاج النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة، ومعرفة سنن الله في الشعوب والأمم والدول، وكيف تعامل معها النبي ﷺ، عندما انطلق بدعوة الله في دنيا الناس، حتى نلتمس من هديه ﷺ الطريق الصحيح في دعوتنا، والتمكين لديننا، ونقيم بنياننا على منهجية سليمة، مستمدة أصولها وفروعها من كتاب ربنا، وسنة نبينا ﷺ، قال تعالى:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

فقد كان فقه النبي ﷺ في تربية الأمة وإقامة الدولة شاملاً، ومتكاملاً ومتوازنًا، وخاضعًا لسنن الله في المجتمعات، وإحياءِ الشعوب وبناءِ الدول؛ فتعامل ﷺ مع هذه السنن بغاية الحكمة، وقمة الذكاء، كسنة التدرج، والتدافع، والابتلاء، والأخذ بالأسباب، وتغيير النفوس. وغرس ﷺ في نفوس أصحابه المنهج الرباني، وما يحمله من مفاهيم، وقيم وعقائد، وتصورات صحيحة عن الله والإنسان، والكون والحياة، والجنة والنار، والقضاء والقدر. وكان الصحابة ﷺ يتأثرون بمنهجه في التربية غاية التأثر، ويحرصون كل الحرص على الالتزام بتوجيهاته، فكان الغائب إذا حضر من غيبته، يسأل أصحابه عما رأوا من أحوال النبي ﷺ، وعن تعليمه وإرشاده، وعما نزل من الوحي حال غيبته، وكانوا يتبعون خطى الرسول ﷺ في كل صغيرة وكبيرة، ولم يكونوا يقصرون هذا الاستقصاء على أنفسهم، بل كانوا يلقنونه لأبنائهم ومن حولهم.

ففي هذا الكتاب تَقَصٍّ لأحداث السيرة، فيتحدث عن أحوال العالم قبل البعثة، والحضارات السائدة، والأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والخلقية في زمن البعثة، وعن الأحداث المهمة قبل المولد النبوي، وعن نزول الوحي، ومراحل الدعوة، والبناء التصوري والأخلاقي والتعبدي في العهد المكي، وعن أساليب المشركين في محاربة الدعوة، وعن الهجرة إلى الحبشة، ومحنة الطائف، ومنحة الإسراء والمعراج، والطواف على القبائل، ومواكب الخير، وطلائع النور من أهل يثرب، والهجرة النبوية، ويقف الكتاب بالقارىء على الأحداث مستخرجًا منها الدروس والعبر والفوائد، لكي يستفيد منها المسلمون في عالمنا المعاصر.

وتحدث الباحث عن حياة النبي ﷺ منذ دخوله المدينة إلى وفاته، وبين فقه النبي ﷺ في إرساء دعائم المجتمع، وتربيته، ووسائله في بناء الدولة، ومحاربة أعدائها في الداخل والخارج، فيقف الباحث على فقه النبي ﷺ في سياسة المجتمع، ومعاهداته مع أهل الكتاب، التي سجلت في الوثيقة، وحركته الجهادية، ومعالجته الاقتصادية، والارتقاء بالمسلم نحو مفاهيم هذا الدين، الذي جاء لإنقاذ البشرية من دياجير الظلام، وعبادة الأوثان، وانحرافها عن شريعة الحكيم المتعال. وقد حاول الباحث أن يعالج مشكلة اختزال السيرة النبوية في أذهان الكثير من أبناء الأمة. ففي العقود الماضية ظهرت دراسات رائعة في مجال السيرة النبوية، وكتب الله لها قبولاً وانتشاراً كالرحيق المختوم لصفي الدين المبار كفوري، وفقه السيرة للغزالي، وفقه السيرة النبوية للبوطي، والسيرة النبوية لأبي الحسن الندوي، وكانت هذه الدراسات مختصرة ولم تكن شاملة لأحداث السيرة، واعتمدت بعض الجامعات هذه الكتب، وظن بعض طلابها أن من استوعب هذه الكتب فقد أحاط بالسيرة النبوية، وهذا، في رأيي،

خطأ فادح وخطير في حق السيرة النبوية المشرفة، وقد تسرب هذا الأمر إلى بعض أئمة المساجد، وبعض قيادات الحركات الإسلامية، وانعكس ذلك على الأتباع، فأحدث تصورًا ناقصًا للسيرة عند كثير من الناس، وقد حذر الشيخ محمد الغزالي من خطورة هذا التصور في نهاية كتابه (فقه السيرة) فقال: قد تظن أنك درست حياة محمد ﷺ إذا تابعت تاريخه من المولد إلى الوفاة، وهذا خطأ بالغ.

إنك لن تفقه السيرة حقًّا إلا إذا درست القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وبقدر ما تنال من ذلك، تكون صلتك بنبي الإسلام[1].

ففي هذه الدراسة يجد القارىء تسليط الأضواء على البعد القرآني، الذي له علاقة بالسيرة النبوية كغزوة بدر، وأحد، والأحزاب، وبني النضير، وصلح الحديبية، وغزوة تبوك، فبين الباحث الدروس والعبر، وسنن الله في النصر والهزيمة، وكيف عالج القرآن الكريم أمراض النفوس من خلال الأحداث والوقائع. إن السيرة النبوية تعطي كل جيل ما يفيده في مسيرة الحياة، وهي صالحة لكل زمان ومكان، ومُصلحة كذلك.

لقد عشت سنين من عمري في البحث في القرآن الكريم، والسيرة النبوية، فكانت من أفضل أيام حياتي، فنسيت أثناء البحث غربتي وهجرتي، وتفاعلت مع الدرر والكنوز، والنفائس الموجودة في بطون المراجع والمصادر، فعملت على جمعها وترتيبها وتنسيقها وتنظيمها، حتى تكون في متناول أبناء أمتي العظيمة، وقد لاحظت التفاوت في ذكر الدروس والعبر، والفوائد والأحداث بين كتاب السيرة قديمًا وحديثًا، فأحيانًا يذكر الذهبي ما لم يذكره ابن هشام، ويذكر ابن كثير ما لم يذكره أصحاب السنن، هذا قديمًا، أما حديثًا فقد ذكر السباعي ما لم يذكره الغزالي، وذكر البوطي ما لم يذكره الغضبان، وهكذا وجدت في التفسير، وشروح الحديث، كفتح الباري، وشرح مسلم للنووي، وكتب الفقهاء ما لم يذكره كتاب السيرة قديمًا ولا حديثًا، فأكرمني الله تعالى بجمع تلك الدروس والعبر والفوائد، ونظمتها في عقد جميل يسهل الاطلاع عليه، ويساعد القارىء على تناول تلك الثمار اليانعة بكل سهولة.

إن في هذا الكتاب حصيلة علمية، وأفكارًا عملية، جمعت من مئات المراجع والمصادر، وقد أثرى هذا الجهدَ كثيرون بالحوار والنقاش والندوات، فأفاد بعضهم في الإشارة إلى بعض المراجع والمصادر النادرة، وعمل على توفيرها، والبعض الآخر أرشد إلى ضرورة التركيز على السنن والقوانين التي تعامل معها النبي ﷺ في حركته المباركة، كقانون الفرصة في فتح خيبر، وفتح مكة. وأشار البعض إلى أهمية ربط السيرة التاريخية بالسيرة السلوكية، والسيرة المعبر عنها بحديث شريف، أو فعل نبوي، والسيرة كما يقررها القرآن الكريم - ببعضها ومزجها في منهجية متناسقة - تمد أبناء الجيل بعلم غزير، وفقه عميق، وعاطفة جياشة، فهي غذاء للروح،

(١) انظر: فقه السيرة للغزالي (ص ٤٧٦).

وتثقيف للعقول وحياة للقلوب، وصفاء للنفوس.

إن السيرة النبوية غنية في كل جانب من الجوانب، التي تحتاجها مسيرة الدعوة الإسلامية، فالنبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن ترك سوابق كثيرة، لمن يريد أن يقتدي به في الدعوة، والتربية، والثقافة، والتعليم، والجهاد، وكل شؤون الحياة، كما أن التعمق في سيرة الرسول ﷺ يساعد القارىء على التعرف على الرصيد الخلقي الكبير، الذي تميز به رسول الله ﷺ عن كل البشر، ويتعرف على صفاته الحميدة، التي عاش بها في دنيا الناس، فيرى من خلال سيرته مصداق قول حسان بن ثابت رضي الله عنه عندما قال:

وأحسن منك لم تَرَ قَطُّ عيني ... وأجمل منك لم تلد النساءُ
خُلِقت مُبَرءًا مِن كل عيبٍ ... كأنك قد خُلِقتَ كما تشاءُ[1]

هذا ولا أدعي أني أتيت بما لم تستطعه الأوائل، فشأن رسول الله ﷺ كبير، وتوضيح بعض معالم سيرته يحتاج إلى نفس أرق، وفقه أدق، وذكاء أكبر، وإيمان أعمق، كما أنني لا أدعي لعملي هذا العصمة، أو الكمال، فهذا شأن الرسل والأنبياء، ومن ظن أنه قد أحاط بالعلم فقد جهل نفسه، وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: الآية ٨٥].

فالعلم بحر لا شاطىء له، وما أصدق الشاعر إذ يقول:

وقل لمن يدّعي في العلم فلسفة ... حفظت شيئًا وغابت عنك أشياء

يقول الثعالبي: لا يكتب أحد كتابًا فيبيت عنده ليلة، إلا أحب في غيرها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا في ليلة فكيف في سنين معدودة؟

وقال العماد الأصبهاني: إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابًا في يومه؛ إلا قال في غده: لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن، ولو زِيدَ كذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر.

وأخيرًا أرجو من الله تعالى أن يكون عملاً لوجهه خالصًا، ولعباده نافعًا، وأن يثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، قال الشاعر:

أسيرُ خلف رِكَاب القوم ذا عَرَجٍ ... مؤمِّلًا جَبْرَ ما لا قَيْتُ من عوَجِ

---

(١) شرح ديوان حسان بن ثابت: ضبطه وصححه عبد الرحمٰن البرقوقي (ص ٦٦)، ب ـ ث، ديوان حسان بن ثابت (ص ١٠) تحت عنوان: (خلقت مبرءًا) طبعة دار صادر ـ بيروت، ب ـ ت، ديوان حسان بن ثابت (ص ١٢)، طبعة دار الشرق العربي ـ بيروت ـ ١٩٩١م.

فإن لحِقْتُ بهم من بعد ما سبقوا فكم لربِّ السماء في الناس من فَرَجِ
وإن ظَلَلْتُ بقفر الأرض منقطعا فما على أعرج في ذاك من حرج

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورضوانه

علي محمد الصّلاّبي

١٨ رجب ١٤٢١ هـ

١٦ أكتوبر ٢٠٠٠ م